قراءة في حياة البردّوني وتعدد السمات الأسلوبية في شعره

د. همدان زيد دمّاج*

1. مقدمة

عاش الشاعر العربي الكبير عبد الله البردّوني حياةً فريدة، غنية بالتجارب والأحداث، متمردةً على بؤس الواقع وظلم الحكام، ومترعةً بالأحزان والآمال على حد سواء. وهكذا كان شعره أيضاً فريداً، غنياً، مُحلقاً في سماوات الإنسانية وعذاباتها، ومتمرداً على المألوف الشعري، فلم يرحل عن الدنيا إلا وقد وضع بصمته الخاصة في ديوان الشعر العربي، وأصبح أحد أهم وأشهر شعراء العربية في القرن العشرين.

لقد استطاعت تجربة البردّوني الشعرية، الممتدة لأكثر من نصف قرن، وما تخللها من تنوع وتجريب على كافة الأصعدة والأوجه، أن تجذب إليها عدداً كبيراً من القراء، وأن تلامس ذوائقهم الشعرية على اختلافها. كما أنها حظيت –وما تزال– بعدد كبير من الدراسات والأبحاث النقدية والأكاديمية في مستويات متعددة، سواء في اليمن والوطن العربي أم خارجه أيضاً.

تحاول هذه الورقة البحثية أن تقدم قراءة بانورامية لبعض جوانب حياة البردّوني، وخاصة طفولته، وعلاقته بالهمِّ الاجتماعي والسياسي في اليمن والوطن العربي، إلى جانب تسليط الضوء على بعض السمات الأسلوبية والحداثية المميزة لتجربته الشعرية الغزيرة، بما في ذلك توظيفه للسرد بتقنياته وأدواته المختلفة، واستخدامه المكثف للمفارقات والسخرية والأسئلة المتكررة، ورؤيته الشعرية الخاصة والحداثية الشكل والمضمون.

2. طفولةٌ بائسة وشجاعة مُلهِمة

منذ بداية تجربته الطويلة، اكتسب شعر البردّوني خصائصَ متعددة، مستمَدَّة أساساً من شخصيته المتفردة كإنسان شجاع متمرد على الواقع، وشاعر مرهفٍ متألم، ودارسٍ عميق للتراث، ومفكرٍ ثائرٍ مناكف للظلم والظلام الذي

* روائي وأكاديمي من اليمن، نائب رئيس مركز الدراسات والبحوث اليمني، أمين عام مؤسسة "تمدُّن" (بريطانيا)، ورئيس تحرير مجلة "غيمان" الأدبية.

ذاق مراراته في طفولته القاسية. وإذا كان الجُدَري قد أطفأ الضوء في عيني البردّوني وهو ما يزال في الخامسة من عمره؛ فإنه لم يتمكن من إطفاء جذوة بصيرته التي كشفت له ما احتجب عن غيره.

2_1 العمى وعبقرية الرؤية

من نافل القول أن فقدان البصر في هذه المرحلة المبكرة من العمر يشكل لأي طفل منعطفاً هاماً في حياته، كما في مهاراته وقدراته المهنية أياً كانت. ولعل أفضل طريقة لمعرفة تأثير هذا الأمر على شخصية البردّوني وإبداعه الشعري والفكري هي النظر في كيفية تعاطيه مع هذه المسألة في بعض ما كتبه عن طفولته، أو تحدث به في مقابلاته الصحفية أو التلفزيونية. يذكر البردّوني أنه ولد في أحضان قرية "البَرَدُّون"، واصفاً إياها بـ"شاعرية الهواء، ذهبية الأصائل والأسحار، يطل عليها جبلان شاهقان مكللان بالعشب، مؤزران بالنبت العميم...". وفي أحضان هذه القرية، "وتحت ظل والده الفلاح ووالدته، مرِحتْ طفولته وتحسستْ نظراتُهُ كؤوسَ الجمال الفاتن، حتى أغمض عينيه العمى بين الرابعة والسادسة من العمر، بعد أن كابد الجُدَري سنتين. وقد كان حادث العمى مأتماً صاخباً في بيوت الأسرة؛ لأن ريفه يعتدُّ بالرجل السليم من العاهات؛ فرجاله رجال نزاع وخصام فيما بينهم؛ فكلّ قبيلة محتاجة إلى رجل القِراع والصِّراع، الذي يقود الغارة ويصدّ المغير"[1].

لا شك أن إدراك البردّوني للأبعاد الاجتماعية التي تحيط بمن يفقدون أبصارهم في تلك البيئة والظروف القاسية كان له أثرٌ في تشكيل طموحاته وأهدافه، المتمثلة في اختراق عالم الظلام/ الجهل، الذي كان سائداً في اليمن آنذاك، وإصراره على الالتحاق بالتعليم أولاً، والتحليق في آفاق التميز والنبوغ، وإثبات مكانته الخاصة في المجتمع ثانياً. ولكي يحقق هذه الطموحات الكبار، كان عليه، ككل المبدعين الفاقدي أبصارهم، أن يتعامل مع العمى بذلك الوعي البناء المحيط بتجارب سابقيه، فها هو يقول: "ألِفْتُ العمى، حتى أصبحتُ أخاف الإبصار"، موضحاً أن "الحواس ليست قيماً بشرية، فالفأر أقوى حاسة شمّ من الإنسان، والغراب أحدّ بصراً من الإنسان، لأن الحواس والغرائز مشتركة، كما أن العاهات مشتركة، بين الناس والحيوانات". ولا يقف البردّوني عند هذا الحد، بل يقوم بتوصيف حالته بشكل مغاير للمألوف، إذ يقول: "ربما نتذكر أن عبقرية الرؤية جعلت مني فيلسوفاً، كما أن عاهة الصمم جعلت من بتهوفن موسيقياً عظيماً، كما أن عاهة العمى هي التي أنبتت في المعري مئات العيون الداخلية، لأن السماع بالآذان تقليدي، والرؤية بالعيون الجارحة اعتيادية، أما الرؤية بمواطن القلب، ومواهب العقل، فهي اجتياز للموروث والمعتاد، فهذا العمى قد أصبح صديقاً، وجعل من الشعر أكثر التصاقاً بنفسي"[2].

---

(1) عبد الله البردوني: الأعمال الشعرية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2002، المقدمة، المجلد الأول.

(2) أحلام الفهمي: "جنوبيون في صنعاء شماليون في عدن"، صحيفة "الجزيرة"، 4/4/ 2015، https://goo.gl/3gWJ3m.

هكذا يلخص البردّوني، الذي أصدرت الأمم المتحدة عام 1982 عملة فضية عليها صورته كمعاق تجاوز العجز، تراجيديا فقدان البصر بعبقرية الرؤية، جاعلاً من العمى صديقاً، بل نعمة أكثر منه نقمة. ولطالما رفض مقارنته بشعراء كبار مثل أبي العلاء المعري أو بشار بن برد؛ لأن المقارنة كانت تأتي من جهة العمى الذي لا يعترف به، لا من جهة الشعر الذي أصبح حياته. يقول في إحدى مقابلاته التلفزيونية: "لم أشعر بسلب نعمة البصر، لأني ما طعمت نعمة البصر، فقد فقدت النظر قبل أن يكون عندي الوعي الرؤيوي، وعندما سأفارق العمى سأكون قد فارقت الحياة"[3]. البردّوني هنا يخبرنا أن العمى لا علاقة له "بوعيه الرؤيوي" الذي تكوّن لديه لاحقاً، مؤكداً في مقابلة أخرى، وببساطته المعروفة: "والله لو لم أكن كفيفاً لكنتُ مثل إخوتي، فلاحاً أو راعياً أو مغترباً في إحدى دول الخليج"[4]. هذه هي روح البردّوني الرائي المتجاوز للعمى، الروح التي يسكنها الإصرار والتحدي والصمود، وهذه هي خلاصة شخصيته المفعمة بالأمل، التي "تطلعت إلى مجتمع يسوده العدالة والسلام والديمقراطية، وحملت بين جوانحه أمة ووطناً"[5].

لكي يستهلَّ الصبحَ مِن آخر السُّرى
يحنُّ إلى الأسنى، ويعمى لكي يَرَى

لكي لا يفيق الميّتونَ ليظفَرُوا
بموتٍ جديدٍ... يُبدعُ الصحوَ أغبَرَا

لكي يُنبتَ الأشجارَ... يمتدُّ تربةً
لكي يصبحَ الأشجارَ والخِصبَ والثَّرى

لكي يستهلَّ المستحيلُ كِتَابَهُ...
يمدُّ لهُ عينيهِ حبراً ودفتَرَا[6]

(3) مقابلة تلفزيونية على قناة "العربية"، 1996، على الرابط: https://goo.gl/JG4rie.

(4) د. رشيد الخيون: "فصول من مسيرة البردوني الحياتية والشعرية"، صحيفة "الشرق الأوسط"، منقول من موقع المجلس اليمني https://goo.gl/ysKAMj.

(5) خالد الرويشان: "بين يدي البردوني"، مقدمة "ديوان عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية"، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2002، المجلد الأول.

(6) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "وجوه دخانية في مرايا الليل"، من قصيدة "الأخضر المغمور"، المجلد الأول، ص 747.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن البردّوني، كغيره من كبار الشعراء العرب المكفوفين، لم يثنه فقدان بصره عن شحن قصائده ببلاغة شعرية بصرية مذهلة في معظم قصائده، كما في هذا المقطع من قصيدة "الهدهد السادس" على سبيل المثال:

الصمتُ يُعْشِبُ طحلباً، حُمَّى، ذيولاً عوسجية

وقرونَ أشباحٍ كأبوابِ السجونِ العسكرية

سقفٌ من الحَيَّاتِ والأيدي وألوان المنية

يطفو ويركضُ، يمتطي عينيه، يسقط كالمطية

ماذا هنا؟! شيءٌ كلا شيءٍ، شظايا متحفية[7]

* * *

2_2 من ظلام التيه إلى ضوء الفجر

عاش البردّوني طفولةً دراميةً بامتياز، شبيهة كثيراً، في تفاصيلها المؤلمة والقاسية، بعذابات الطفولات البائسة التي قرأنا عنها في كلاسيكيات الأدب العالمي. ولا شك أن معاناته في طفولته قد تركت في نفسه آثاراً عميقة، وجراحات غائرة، كان لها دورٌ كبيرٌ في تشكيل وجدانه وسمات شخصيته المتحدية والصابرة، التواقة للخير والعدل، التلقائية والمنفلتة من كل أنواع القيود واليأس. كما كان لهذه المعاناة، وللقضايا العامة التي آمن بها لاحقاً، وكرَّسَ لها جُلَّ حياته، تأثيرٌ واضحٌ على شعره، الذي جاء مُحمّلاً بعبق أنفاس الحياة والحرية والإنصاف، مشحوذاً بكل ما يشعل الروح من حبٍّ وعطفٍ وشجنٍ وشكوى، وانكساراتٍ وآلام.

متألمٌ! ممّا أنا متألمُ؟!
حارَ السؤالُ، وأطرقَ المستفهمُ

ماذا أحسُّ؟! وآهِ! حزني بعضُهُ
يشكو فأعرفه، وبعضٌ مُبهمُ

(7) البردُّوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "السفر إلى الأيام الخضر"، المجلد الأول، ص 709.

بي ما علمتُ من الأسى الدامي، وبي
مِـن حُـرقةِ الأعـمـاقِ مـا لا أعـلمُ

وأُعارِكُ الـدنيا وأهـوى صـفـوَها
لكـنْ كما يـهـوى الكلامَ الأبكمُ

وأُبارِكُ الأُمَّ الـحـيـاةَ لأنهـا
أمّي، وحـظّي مـن جـنـاهـا العلقمُ

حـرمـاني الحـرمـانُ، إلا أنـني
أهـذي بـعـاطـفـةِ الحياةِ وأحلمُ

والمـرءُ إنْ أشـقـاهُ واقـعُ شؤمِهِ
بالغُبـنِ، أسـعدَهُ الخيالُ المنعمُ(8)

* * *

ولد البردّوني بين عامي 1929 و1930 تقريباً. وعدم معرفة عام ولادته بالضبط ليس أمراً مستغرباً في ذلك الجيل، أو الأجيال اللاحقة في اليمن حتى ستينيات القرن المنصرم؛ فاليمن في ذلك الوقت كان يعيش حالة غير مسبوقة من التخلف والجهل والفقر، جعلته خارج نطاق الزمان والمكان. جاء البردّوني من أسرة فلاحة بسيطة "لم تعرف قلماً أو كتاباً ربما لمئات خلت من السنين"[(9)]. وعندما جاء موسم الجُدري، كما ذكر د. عبد العزيز المقالح، "أخذ من كل قرية ومن كل مدينة ما استطاع على حمله من الكبار والصغار، ليلقي بهم في المقابر، بعد أن ترك بصماته على بعض الوجوه، وانتزع من بعضها أغلى ما فيها: العينين. وكانت عينا الطفل عبد الله من نصيب ذلك الموسم المتوحش"[(10)]. لكن على الرغم من ذلك "شق الضرير الصغير طريقه في الظلام، بين وحل القرية وشوكها، وعانى من هجير النهارات، ومن برودة الليالي، يلتقط كل شيء بقلب ذكي وعقل بصير، فضول في البحث لا حدود له، ورغبة شاسعة في معرفة كل شيء والاستفادة منه"[(11)].

(8) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "من أرض بلقيس"، من قصيدة "فلسفة الجراح"، المجلد الأول، ص 112.

(9) خالد الرويشان، مصدر سابق.

(10) د. عبد العزيز المقالح: مقدمة "ديوان عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية"، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2002، المجلد الأول.

(11) المصدر نفسه.

درس البردّوني في مدارس مدينة ذمار لمدة عشر سنوات، ثم انتقل إلى صنعاء حيث أكمل دراسته في دار العلوم، وتخرج فيها عام 1953، قبل أن يعمل بعدها في المحاماة والتدريس. لكن الرحلة من القرية إلى المدينة، للدراسة ثم للعمل، لم تكن بهذه السهولة، بل كانت مثخنة بالغربة والفقر والجوع والوحشة، ومترعة قبل كل هذا بالصبر والتحدي.

في طفولته كان البردّوني، بسبب عماه وفقره، يتعرض لشتى صنوف المضايقات من الناس، صغاراً وكباراً، متحسساً بيديه جدران بساتين صنعاء التي يحاول أن يدخلها خلسة، ليسد رمقه ويطفئ جوعه، مستشعراً بحواسه كل الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها، ومستعيناً بروحه الكبيرة في تحدي الآلام والإهانات التي تناله من غلاظ القلوب الذين يمسكون به.

هو الشرُّ مِلءُ الأرضِ والشرُّ طَبعُها

هو الشرُّ مِلءُ الأمسِ واليومِ والغدِ

وهذا غُبارُ الأرضِ آهاتُ خُيَّبٍ

وهذا الحصى حَبَّاتُ دَمعٍ مُجمَّدِ[12]

تاهت أقدار الصبي، القادم من سكون القرية، وهو يتحسس طريقه في ظلام أزقة المدينة وقسوة أهلها. فقد ضوء عينيه؛ لكنه اهتدى إلى نور العالم وفضاء المعرفة. تكالبت عليه صروف الدهر ومكائد الأيام، وذاق وحشة السجون؛ لكنه رفع رايات التحدي، وانفتحت أمامه أبواب العبقرية والخلود.

هدَّني السجنُ وأدمى القيدُ ساقي
فتعاييتُ بجرحي ووثــاقي

وأضعتُ الخطوَ في شوك الدجى
والعمى والقيدُ والجرحُ رفاقي

ومللتُ الجرحَ حتى ملَّني
جُرحي الدامي ومكثي وانطلاقي

(12) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "من أرض بلقيس"، من قصيدة "سائل"، المجلد الأول، ص96.

وتلاشيتُ فلم يبقَ سوى
ذكرياتِ الدمع في وهم المآقي

في سبيل الفجرِ ما لاقيتُ في
رحلة التيه، وما سوف ألاقي

سوف يفنى كلُّ قيدٍ وقوى
كلِّ سفاحٍ، وعطرُ الجرح باقي[13]

* * *

وتمضي الأيام بالشاعر الضرير، كما يصف المقالح، "فيتسع له مجال القول، ويتسع معه مجال التعبير، ويبدأ شبح الليل في التلاشي"، وها هو الشعر "يضيء ظلام هذا الشاعر المتوحد"، الذي لم يُخلق إلا للشعر، ليبدأ رحلته الشعرية كَسَيْلٍ جارفٍ لا يتوقف، ويصبح "رغم مصاعب الرحلة، وربما بفضل مصاعبها، واحداً من شعرائنا العظام؛ ليس في اليمن فحسب، وإنما في وطننا العربي الكبير"[14].

3. السمات الأسلوبية وتعددها

لقد استأثرت القصيدة البردّونية بوجدان القارئ العربي كواحدة من أهم التجارب الشعرية العربية المعاصرة، ومن خلالها لم يكفّ البردّوني عن مباغتة القلوب والعقول بسهام اللمحات الجارحة، والصور المدهشة، والعبارات اللاذعة، مستخدماً في سبيل ذلك اجتراحات شعرية وبلاغية، وأساليب وتقنيات متعددة أصبحت هي السمات المميزة لنصه الشعري.

3_1 الفضاء السردي وتكرار الأسئلة

من بين السمات الأسلوبية المتعددة التي استخدمها البردّوني كان الاستفهام، وطرح الأسئلة المتكررة والمستفزة للقارئ. يعمل تكرار الأسئلة في النص الشعري، حسب د. رحمن غركان، على تعزيز إبداع المعنى الشعري، كما

(13) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "في طريق الفجر"، من قصيدة "رحلة التيه"، المجلد الأول، ص 363.

(14) د. عبد العزيز المقالح، مصدر سابق.

يشكل حِساً إيقاعياً على مستوى الأداء، يهيمن على النص ويجعله أوضح وأقرب إلى ذائقة المتلقي[15]. جاء بعض هذه الأسئلة المتكررة يحمل في طياته إجاباتٍ صادمة:

لماذا ليَ الجوعُ والقصفُ لك؟!
يُناشدُني الجوعُ أن أسألَكْ

وأغرسُ حقلي فتجنيهِ أنتَ،
وتُسكرُ من عَرَقي مِنجلكْ

لماذا –وفي قبضتيكَ الكنوزُ–
تَمُدُّ إلى لقمتي أنمُلَكْ

وتقتاتُ جُوعي وتُدعى النَّزيهَ!
وهل أصبحَ اللصُّ يوماً مَلَكْ؟!

لماذا تسُودُ على شقوتي؟!
أجب عن سؤالي وإن أخجلَكْ!

ولو لم تُجب فسكوتُ الجوابِ
ضجيجٌ يردِّدُ: ما أنذلكْ![16]

بينما جاءت الأخرى محملةً بما يشحذ تفكير المتلقي وفضوله للبحث عن إجابات:

لماذا المقطفُ الداني
بعيدٌ عن يدِ العاني؟!

لماذا الزهرُ آنيٌّ
وليس الشوكُ بالآني؟!

(15) د. رحمن غركان: البنيات الأسلوبية في "تحولات أعشاب الرماد" لعبدالله البردوني، موقع أثير، 2017/3/5، على الرابط: https://goo.gl/xBTmF1.

(16) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "في طريق الفجر"، من قصيدة "عتاب ووعيد"، المجلد الأول، ص216.

لماذا يقدرُ الأعتى
ويعيا المرهفُ الحاني؟![17]

هذه الأسئلة عادة ما كان يبثها في الحوارات الذاتية أو السردية التي تمتلئ بها قصائده، والتي أصبحت أيضاً من السمات الأسلوبية المميزة لشعره، وحظيت –وما تزال– باهتمام النقاد والقراء على حد سواء، فقد استلهم البردّوني قدراته السردية الخاصة في نصوصه، وبثها عبر شخصياته المتنوعة في الزمان والمكان، "ووظفها بشكل متميز دون أن يخل بالبناء اللغوي للقصيدة"[18].

كما شِئْتَ فَتِّش أين أُخفي حَقَائبي

أتسألني: مَن أنتَ؟... **أعرفُ واجبي**

أجِبْ، لا تحاولْ، عُمرَكَ؟ الاسمَ كاملاً؟

ثلاثونَ تقريباً، "مُثَنَّى الشواجبي"

نعم، أين كنتَ الأمسِ؟ كنتُ بمرقَدي

وجمجُمتي في السجنِ، في السُّوقِ شارِبي[19]

استخدم البردّوني أسلوب السرد الحكائي، وكان هذا ملاحظاً في دواوينه الأولى، وربما كان هذا من تأثير قراءة الشعر العربي القديم الذي يحفل بمثل هذا الأسلوب، كما استخدم أسلوب السرد الدرامي الذي ظهر في دواوينه المتأخرة، "حيث تتجلى الدرامية السردية من الموضوعية المتأتية من طرح الأفكار بوساطة شخص ثالث متجسدة في تقنية القناع الذي يظهر في شعر البردّوني في غير نص"، إلى جانب "مسرحة النص وشيوع الحوار بشقيه الداخلي والخارجي"[20].

أما التقنيات السردية التي ظهرت في القصيدة البردّونية فقد تنوعت أيضاً، فتارة يكون الراوي مختفياً يقدم شخصيات النص دون أية تدخلات، وتارة يظهر لها مخاطباً ومستفهماً، كما يكون الراوي في بعض القصائد، أو

(17) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "كائنات الشوق الآخر"، من قصيدة "كائنات الشوق الآخر"، المجلد الثاني، ص1121.

(18) خالد الرويشان، مصدر سابق.

(19) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "وجوه دخانية في مرايا الليل"، من قصيدة "سندباد يمني في مقعد التحقيق"، المجلد الأول، ص765.

(20) محمد صالح المحفلي: "توظيف السرد في شعر البردوني"، رسالة ماجستير، جامعة حضرموت، اليمن، 2009.

المقاطع، راوياً عليماً خارجاً عن الحدث، محيطاً بالعوالم الغامضة للشخصيات، وفي أحيان أخرى يكون الراوي هو "الأنا" القريب جداً مما يروي، والحاضر في الفعل والمشارك فيه[21].

وفي قصيدة "جواب العصور" تتجلى ملامح السرد الدرامي في امتزاج الحوار الداخلي (الديالوج) بالخارجي، وتعدد الأصوات والشخوص، واستخدام سمات أسلوبية متعددة عززت من الفضاء السردي في القصيدة، في محاولة لإبراز انشطار الذات (عبر شخصية زيد الوصابي المركبة) وتجسيد ذروة الصراع بين الإنسان ونفسه، فضلاً عن صراعه مع محيطه[22].

انتبه يا زيدُ، قفْ، سيارةٌ
المنايا والمُنى أحلى كعابي

خُنتني يا زيدُ كم أضعفتني
مذُّ تخيرتَ من المهد اصطحابي

إصعد السيارةَ، اقعدْ، ههنا
لا تخف، ما أنت موضوعَ ارتيابي

أيَّ زيدٍ يا فتى تدعو؟ **متى؟**
لا تسل أنت، أجب، **هذا جوابي**
أنت زيدٌ، فمن الثاني؟ **أنا**
أنت تدعو أنت، دع عنك التغابي[23]

3_2 المفارقة الشعرية

ومما يلفت انتباه قارئ البردّوني أيضاً كثرة استخدامه للمفارقات الشعرية التي يخفي فيها ظاهرُ النص المعنى الحقيقي الذي عادة ما يكون على تضادٍ معه، واشتغاله بشكل واضح على التجاور النصي للمتناقضات، وما ينتج عنه من مفاجآت من شأنها أن تكسر أفق التلقي[24]، والتي استخدمها في تجسيد تناقضات الواقع وتشوهاته.

---

(21) المصدر نفسه.

(22) د. عبد الحميد الحسامي: "تقنية السرد في الشعر اليمني المعاصر"، مجلة "أدب ونقد"، العدد 329، يونيو 2013.

(23) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "جواب لعصور"، من قصيدة "جواب العصور"، المجلد الثاني، ص1405.

(24) د. عبد الحميد الحسامي: "الحداثة في الشعر اليمني المعاصر"، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004.

والمفارقة، وخاصة مفارقة الموقف أو السياق، تتطلب ذهناً متوقداً ووعياً شديداً بالذات، وتأملاً عميقاً لكشف دلالات التعارض بين المعنى الظاهر والمعنى الخفي الغائص في أعماق النص وفضاءاته البعيدة، وهي، كما تشير د. نبيلة إبراهيم، "وسيلةٌ أسلوبية تولّد فائضاً شعرياً من جهة، وتُضبّب شاشة التلقي الواضحة، عندما تكسر التوقع، بمراوغة الخطوط المستقيمة الرابطة بين الدال والمدلول، والأثر والمرجع"[25].

ولا شك أن البردّوني، الذي أجاد المفارقة والتجاور النصي للمتناقضات في نصوصه الشعرية، كان هو نفسه حصيلة تناقضات ومفارقات كبرى، بين طفولةٍ بائسةٍ وحياةٍ شهرةٍ ومجد، بين لغةٍ يومية بسيطة ولغةٍ شعريةٍ وفكرية جزلة، بين ظلامٍ دائمٍ في العين ونورٍ متوقدٍ بالمعرفة وقوة الخيال، وبين تواضعٍ شخصي وكبرياءٍ وتحدٍّ لا حدود له... ولهذا لم يقتصر استخدامه لهذه السمة الأسلوبية "على رؤية الأضداد ووصفها في إطار المفارقة، بل في قدرته على إعطائها صورة في الذهن أولاً، ثم مطاردتها في الحياة والواقع"[26].

وفي قصيدته "بين الرِّجْل والطريق" تتجلى المفارقات وثنائيات الأضداد بوضوح، مستعينةً بسماتٍ أسلوبية أخرى، كالحوار والاستفهام والسخرية أيضاً:

كان رأسي في يدي مثل اللفافة
وأنا أمشي كباعاتِ الصحافة

وأنادي: يا ممراتُ إلى
أين تنجرُّ طوابيرُ السخافة؟!

يا براميل القماماتِ إلى
أين تمضين؟ **إلى دُورِ الثقافة**

كلُّ برميلٍ إلى الدور؟ **نعم**
وإلى المقهى جواسيسُ الخلافة

ثم ماذا؟! ورصيفٌ مثقلٌ
برصيفٍ يحسبُ الصمتَ حصافة

(25) د. نبيلة إبراهيم: "المفارقة"، مجلة "فصول"، القاهرة، سبتمبر 1987، ص 134.

(26) محمود صلاح سلام: "إعادة اكتشاف البردوني"، مقال منشور في "مصر برس"، 2011/10/18. https://goo.gl/w4RtMy.

ها هنا قصفٌ، هنا يهمي دَمٌ
ربما سمّوه توريدَ اللطافة[27]

3_3 السخرية والتهكم

عُرف البردّوني بسخريته الشديدة، سواءٌ على مستوى حياته الشخصية أو في إنتاجه الأدبي، فقد استخدم السخرية والتهكم بشكل مكثف كأدوات إيصالٍ وإمتاع على حدٍّ سواء، موظفاً إياهما توظيفاً مدروساً ينم عن حسٍّ مرهفٍ وذكي، ووعي فكريٍّ واسع الآفاق، وقدرةٍ فائقة على إيصال قضاياه النقدية والإنسانية إلى عمق أحاسيس القارئ أو المستمع، مثلما نقرأ في قصيدته الشهيرة "لصٌّ في منزل شاعر"، وهو يخاطب اللص:

لم تسلب الطينَ السكونَ،
ولم تَرُعْ نومَ الحجارةْ

كالطيفِ جئتَ بلا خُطى
وبلا صدى، وبلا إشارة

أرأيتَ هذا البيتَ قزماً
لا يكلفكَ المهارة

فأتيته ترجو الغنائم
وهو أعْرَى من مغارة؟!

ماذا وجدتَ سوى الفراغ،
وهــرّةٍ تَشْتَمُّ فـارة

ولهاثِ صعلوك الحروف
يَصوغُ من دمِهِ العبارة

يُطفي التوقّدَ باللظى
ينسى المرارةَ بالمرارة[28]

(27) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "وجوه دخانية في مرايا الليل"، المجلد الأول، ص733.

(28) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "مدينة الغد"، من قصيدة "لص في منزل شاعر"، المجلد الأول، ص 497.

يذكر د. رشيد الخيون أن السخرية المريرة عند البردّوني شكلت "العماد المركزي في شعر يقيم على أرض البشر، يمانيين وعرباً، ويلامس وجدانهم في معيش الروح وهاجس الجسد، في اكتناه التاريخ، وفي الحياة اليومية والحياة المرشحة للرسوخ في الذاكرة"[29]. كما يؤكد محمد الزينو السلوم أن السخرية في شعر البردّوني "تعتمدُ تجسيدَ الحدث وإسقاط الأضواء عليه، مثلهُ مثلُ الرسّامِ الكاريكاتوري الذي يمتلكُ حسّاً مرهفاً وقدرةً على إضاءة جوانب محددة من خلال الزاوية المراد تجسيدها، لتقع عين الناظر عليها مباشرة وتترك أثراً يصلُ إلى تفكيره وعُمْق أحاسيسه ومشاعره"[30]، مشيراً إلى أن عناوين القصائد نفسها كانت مليئة بالتهكم والسخرية، مثل "رائد الفراغ"، "لص في منزل شاعر"، "ذهول الذهول"، "نحن أعداؤنا"، "حماقة وسلاح"... وغيرها. أما مساعد الذبياني[31] فيعيد أسباب توجه البردّوني نحو السخرية، واستخدامها المكثف في كثير من قصائده، إلى سببين: الأول ذاتي يعود إلى الشاعر نفسه، وما عاشه من أحزان وكوارث، بدءاً من العمى، مروراً بموت أمه وتأثير ذلك على حياته كطفل، وانتهاءً بثقافته الشخصية وتأثرها بالمجتمع وبالموروث من الأدب العربي والثقافة الشعبية، والثاني خارجي يتمثل في الظروف السياسية والاجتماعية التي عايشها الشاعر، والتي أكملت رسم همومه ومعاناته، فكانت السخرية أحد أبواب فضحها ومقاومتها على حدٍّ سواء، كما جاء في عدد غير قليل من قصائده، ومنها على سبيل المثال قصيدة "مأساة حارس الملك"، الحوارية التي يعري بها البردّوني جهل الحاكم الذي يأمر حارسه قائلاً:

اقتلوهم، واسجنوا آباءهم
واقتلوهم بعد تكبيل سنة

أمركم؛ لكن... ولكن مثلهم
سيّدي، هذي أسامي أمكنة

هم شياطينٌ، أنا أعرفهم
حين أسطو يدّعون المسكنة[32]

---

(29) د. رشيد الخيون، مصدر سابق.

(30) محمد الزينو السلوم: "شعراء تحت الضوء"، دار الثريا، 2000.

(31) مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني: "السخرية في شعر عبد الله البردّوني"، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة أم القرى، 2010.

(32) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "وجوه دخانية في مرايا الليل"، من قصيدة "مأساة حارس الملك"، المجلد الأول، ص 741.

وكذلك قصيدة "نحن أعداؤنا" التي يواصل فيها البردّوني ما يجيده دائماً كمصلح اجتماعي يعري متهكماً خنوع الإنسان العربي واستسلامه لواقعه البائس وتحميل اللوم دائماً على الأعداء المفترضين:

لأنَّا رضعنا حليبَ الخنوعْ
تقمَّصَنَا من صبانا الخضوعْ

فجُعْنا ليكتظَّ جلَّادُنا
ويطغى، وننسى بأنَّا نَجُوع

وحين شعرْنا بنهشِ الذئاب
شددنا على الجرحِ نارَ الدموع

ورُحْنا نُجيد سبابَ الدُّجى
ولم نَدْرِ كيف نُضيء الشموع

نفورُ وتُطفئنا تفلةٌ
فنمتصُّ إطفاءنا في خشوع

...

وقُلنا: أتى مِن وراءِ الحدود
جَرادٌ غريبٌ فأشقى الربوع

وليس عِدانا وراء الحدود
ولكن عِدانا وراء الضلوع[33]

3_4 تجديدٌ وحداثة

لعل أكثر ما يتميز به شعر البردّوني هو الحداثة التي عبّرت فيه عن نفسها بجوهرها التجديدي وروحها العصرية دون الحاجة إلى تغيير قالبها الشعري العمودي، الذي تمسَّك به دائماً. وقد تميزت هذه الحداثة، حسب ما ذهب إليه فواز حجو، "بموسيقى وإيقاعات يعرفها محبّوه"، وبطبقات صوتية خاصة به، فالبردّوني "لا ينتمي إلى أي

(33) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "مدينة الغد"، من قصيدة "نحن أعداؤنا"، المجلد الأول، ص 535.

مدرسة أدبية"، بل "يمتلك مشروعاً خاصاً به، يتم بالتوحّد مع روح العصر والتجديد والحداثة، على صعيدي الرؤيا والتشكيل"[34].

ففي الوقت الذي حرص فيه البردّوني على التوجه بشعره إلى جموع الناس والتواصل المباشر معهم والتعبير عن قضاياهم، فإنه أيضاً استطاع أن يخاطب الذهنية الثقافية المتقدمة شعرياً، عبر مخالفته للمألوف، واعتماده على طقوس شعرية ولغوية غير مسبوقة، حتى على مستوى عناوين قصائده، كما أوردنا في أكثر من مكان، جاعلاً من شعار "الأصالة والمعاصرة" واقعاً ملموساً في شعره، أو، حسب وصف الدكتور عبد العزيز المقالح، "اللقاء الواعي بين الماضي والحاضر، والعناق الملائم بين الإبداع والتراث"[35]، هذا العناق الذي جمع بين الحداثة والتراث الشعري، بوعي ناضجٍ وتناغمٍ مدهش.

يقول وليد مشوّح إن البردّوني "دافع عن القصيدة العمودية بوعي، فأثبت في مسيرته الشعرية أن القصيدة العمودية ظُلمت كثيراً... ومن خلال تجديده في المعنى وعصْرنة الصورة، برهن على قدرة القصيدة العمودية على مواكبة روح العصر، وإثبات ذاتها فيه"[36].

* * *

يقدم الدكتور عبد العزيز المقالح، في أكثر من دراسة عن البردّوني وملامح الحداثة في قصيدته البيتية، قراءة لما حملته القصيدة البردّونية من "مغامرة جديدة ومدهشة داخل النظام البيتي، مغامرة تصنع اللامألوف من المألوف، وتقيم الجسر المفقود في حركة التنوير الشعري في امتدادها من البيت إلى القصيدة، ومن القصيدة إلى النص الفني المعاصر"، موضحاً أن البردّوني وكل الشعراء العرب "المبدعين والحريصين على الانتماء بشعرهم إلى الوجود المعاصر، قد شاركوا جميعاً، وبمستويات مختلفة، في هز القصيدة التراثية وآفاقها، كلٌّ بأسلوبه"، وصولا إلى القصيدة النثرية، وأن "كل هذه المحاولات مشروعة وضرورية للشعر إذا كان الهدف هو الإبداع وإثبات أن نبض القصيدة كنبض التاريخ تطورٌ لا يتوقف ولا ينتهي ولا يعترف بالقيود والسدود"؛ لأن التوقف —حسب رأي المقالح– "صيغة للموت وصورة من إعلان إفلاس الإبداع"[37].

---

(34) محمد الزينو السلوم، مصدر سابق.

(35) د. عبد العزيز المقالح: "ملامح حداثية في شعر البردوني"، شوهد في 2018/7/25، https://goo.gl/XPtAhS.

(36) وليد مشوّح: "الصورة الشعرية عند البردوني"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1996.

(37) د. عبدالعزيز المقالح: "من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي"، دراسات ومتابعات نقدية، صنعاء، دار الكلمة، 1990، ص143.

ويوضح المقالح كيف أن البردّوني استطاع التخلص من التأثير البنائي للقصيدة العمودية الموحدة البحر والقافية، مستجيباً للتمرد اللغوي ولخلة تركيب الجملة الشعرية بحيث لا تؤدي القافية إلى تقطيع أوصال القصيدة أو إلى تفتيت معانيها من أجل إيجاد التوافق الصوتي مع بقية الأبيات، أو إعلان نهاية المعنى وإفساح الطريق لمعنى جديد، بل إنها تتلاشى بإيقاعها الحاد في البنية الداخلية للقصيدة[38]، وهو ما ذهب إليه أيضاً د. عبد الحميد الحسامي، الذي يذكر أن البردّوني اعتمد في شعره على التجريب في مستويي الرؤية والبناء الفني، وترويض القصيدة الخليلية لسمات حداثية، موضحاً أن "مبلغ تجريبه على مستوى الإيقاع هو تعدد القوافي في النص الواحد، كما قدم في محاولاته التجديدية تجارب فنية متسمة بالخصوبة المحلية"[39].

أما المنحى الآخر في الحداثة الشعرية للبردوني، حسب ما يوضحه المقالح، فيتجلى في الملمح السوريالي الذي استطاع البردّوني التقاط مؤثراته وكتابة بعض قصائده في ضوئه من أجل إبراز حالة التناقض الموجودة في الواقع من جهة، وفي تحديث القصيدة العربية والخروج بها من المسكوكات التقليدية من جهة ثانية، مشيراً إلى أن هذا الملمح يشكل الخصوصية الخالصة في القصيدة البردّونية:

للريح طعمٌ في حلوق الحصى
وللحواري بالنجوم اكتحالْ

هذي الشبابيكُ لها صبوةٌ
إلى وصالٍ غير ذاك الوصالْ

تلك القناديلُ وإن راوغَت
لها غموضٌ واضحُ الانفعالْ

* * *

ماذا اعتراني؟! لا أنا عامرٌ
ولستُ قفراً... ما اسمُ هذا المآلْ؟!

يُعبِّر الأحلامَ، تبدو لَهُ
ذوات أنيابٍ وأيدٍ طوالْ

(38) د. عبد العزيز المقالح، ملامح حداثية، مصدر سابق.

(39) د. عبد الحميد الحسامي، الحداثة في الشعر اليمني، مصدر سابق.

لها أُنوفٌ مثلُ ريشِ القطا
وأعينٌ مثلُ مدبِّ النِّملْ

أقدامُها مثل صدى أنَّةٍ
أكتافُها مثل جسوم البغالْ

* * *

يحسّ رأسين على جيدهِ
وحيث كان الحلق حَلّ القَذالْ

يلفُّ زنديهِ على صدرهِ
يُصغي كمسلولٍ يقاوي السُّعالْ

تلوذ ساقاهُ بأضلاعه
يَهرُّ في إبطيه وكرُ اغتيالْ

أمطارُ هذا الوقت ضوئيّةٌ
يا سقف هذا وابلٌ أم وبالْ؟![40]

وقد لا يبالغ المرء بالقول إننا نقف أمام هذا النص كما لو كنا نقف أمام إحدى لوحات الفنان سلفادور دالي، في غرائبيتها ورموزها السوريالية المركبة، أو –كما يشير المقالح– "أمام طقس شعري ولغوي غير مسبوق، لا في شعرنا القديم ولا في شعرنا الحديث"، والذي يرى أن ثقافة البردّوني العميقة في التراث العربي قد ساعدته على عدم الخوف من تهمة الحداثة التي لها جذورها في الثقافة العربية أيضاً، ولم تكن حكراً على "الغرب وإنجازاته في الآداب"[41].

وفي هذا الصدد، يجدر التذكير بأن البردّوني استطاع توظيف معرفته العميقة والواسعة بالتراث العربي، واطلاعه على الثقافات الشعبية العربية، في كثير من قصائده، وتمكن عن طريق استلهامه واستدعائه للشخصيات والوقائع التاريخية والموروث الأسطوري، واستخدامها بشكل متكرر وحيوي، من أن يقدم للقارئ بُعداً ثقافياً واسع الدلالة

(40) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "رواغ المصابيح"، من قصيدة "بيت في آخر الليل"، المجلد الثاني، ص 458.

(41) د. عبد العزيز المقالح، ملامح حداثية، مصدر سابق..

والثراء. وهذا التوظيف للتراث لدى البردّوني، كغيره من السمات المميزة لشعره، يعد موضوعاً ثرياً يحتاج إلى دراسة خاصة ومستفيضة.

4. الابن الرائي وأمه الخضراء

ولا بد لنا في هذه الورقة البانورامية عن حياة البردّوني أن نتوقف قليلاً عند الحضور الطاغي لواقع اليمن والأمة العربية، وقضاياه السياسية والاجتماعية، في شعر البردّوني؛ إذ تكاد العشرات من قصائده تنطق بحاضر الأمة المرير، لكأنَّ الزمن اليمني والعربي هو نفسه لم يتغير، ولكأنَّ الآلام والآمال والتحديات هي ذاتها التي شغلته طيلة مسيرة حياته، والتي كرَّسَ من أجلها أنوار فكره وشعلة إبداعه الشعري.

"حبيبُ" ما زالَ في عينيكَ أسئلةٌ
تبدو، وتنسى حكاياها فتنتقبُ

وما تزال بحلقي ألفُ مُبكيةٍ
من رهبة البوح تستحيي وتضطربُ

يكفيكَ أنّ عِدانا أهدروا دَمَنا
ونحن من دَمِنا نحسو ونحتلبُ

سحائبُ الغزوِ تشوينا وتحجبنا
يوماً ستحبل من إرعادنا السّحبُ

ألا ترى يا "أبا تمّام" بارقنا؟!
"إنّ السّماء تُرجَّى حين تحتجِبُ"[42]

لقد شكَّل الهمُّ العربي واليمني موضوعاً رئيسياً في معظم أعمال ومؤلفات البردّوني، سواء الشعرية أم الفكرية والنقدية الأخرى، وهي الأعمال التي بث فيها خلاصة آرائه، التي انصبت غالباً على الهم الثقافي اليمني، ومنها ما تشعب إلى قضايا عربية وعالمية، فقد أرَّخ البردّوني للفنون الشعبية، وأبدع في تجذير الأدب الشعبي اليمني، موضحاً

(42) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "لعيني أم بلقيس"، من قصيدة "أبو تمام وعروبة اليوم"، المجلد الأول، ص 624.

صلته بعالم الأسطورة الشعبية والدينية، كما أرخّ للشعر اليمني وشعرائه[43]، وكتب في قضايا المجتمع والتاريخ السياسي والأدبي.

* * *

في اليمن، لم يكن البردّوني شاعراً عملاقاً فحسب، بل كان وجهاً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً بارزاً، وكان معروفاً بشخصيته العصامية والصدامية بما تحمله الكلمة من معان ودلالات. يقول عبد الباري طاهر إن البردّوني كان "أكثر شجاعة وجرأة بالقلم واللسان، شعراً ونثراً، في مقارعة الطغيان والانحرافات"، مشيراً إلى أنه انتقد الحكام والمسؤولين بجرأة نادرة، سواء في شمال اليمن أم في جنوبه، كما أنه "كان شديد النقد للتشطير وللانحرافات والممارسات الخاطئة في الحركة الوطنية اليمنية ورموزها"، ولم يسلم أحد من سهام نقده الأدبي، بما في ذلك كبار رموز الحركة الوطنية والأدبية اليمنية، أمثال محمد محمود الزبيري؛ وهو النقد الذي أثار حينه الكثير من الجدل وردود الفعل في الوسط الأدبي والسياسي في اليمن. ويضيف طاهر أن البردّوني كان معتاداً على نقد الشعراء والأدباء والمثقفين من مجايليه بقسوة، وأنهم كانوا يخافونه أشد الخوف عندما كان لا يتردد "في سلخ جلودهم، والتمسخر بهم"[44]. أما يوسف الشحاري، الشاعر والسياسي اليمني المعروف، فيؤكد أن تاريخ المكانة العالية للبردوني في قلوب ملايين اليمنيين يعود إلى "نصف قرن من الجهد والكدّ والتفاني في سبيل الأمة والوطن وقضاياه العادلة، مما أهّله على الدوام ليقود مثقفي شعبه نحو الحرية والمواقف المشرفة"[45].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البردّوني لعب دوراً مهماً في تأسيس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وتم عام 1970 انتخابه أول رئيس له. واتحاد الأدباء كان المؤسسة الوحيدة الموحدة في اليمن أثناء التشطير، ولعب دوراً سياسياً وثقافياً محورياً في قيام الوحدة اليمنية في مايو 1990، ولعقود من الزمن كان لآراء وأشعار البردّوني تأثيرٌ كبير في صنع المزاج الشعبي والسياسي الداعي إلى وحدة اليمن أرضاً وإنساناً:

يمانيُّون في المنفى
ومنفيُّون في اليَمَنِ

(43) رشيد الخيون، مصدر سابق.

(44) عبد الباري طاهر: "البردوني المبدع والرائي الذي رأى ما لا يُرى"، ملحق صحيفة "الثورة"، 2010/8/29.

(45) محمد الزينو السلوم، مصدر سابق.

جنوبيُّون في "صَنعا"
شماليُّون في "عَدَنِ"

وكالأعمامِ والأخوالِ
في الإصرارِ والوَهَنِ

خطى أكتوبر انقلبَتْ
حُـزيـرانـيَّـةَ الكَفَنِ

تَرَقَّى العارُ من بيعٍ
إلى بيعٍ بلا ثمنِ

ومن مُستعمرٍ غـازٍ

إلى مُستعمرٍ وطَني

لماذا نحنُ -يا مربي
ويا منفى- بلا سكنِ

بلا حلمٍ، بلا ذِكرى
بلا سلوى، بلا حَزَنِ؟![46]

* * *

يقول الدكتور الحسامي إن اليمن في شعر البردّوني ليست فضاءً مكانياً محدوداً بحدود جغرافية معينة، بل ذاكرة تاريخية، يعيش فيها الإنسان آلامه وآماله في بقعة جغرافية تشكّل هوية ووطناً لملايين من البشر حققت حضوراً في الفعل التاريخي الإنساني، أو عانت غياباً أو تغييباً عن ذلك الحضور، مشيراً إلى أن البردّوني اعتمد على الخصوصية المحلية من خلال توظيف المفردة المكانية التي تكتظ بها نصوصه، لتتحول إلى خريطة تتناثر عليها مسميات الشخوص والأماكن والأحداث، وإدراجها في سياق النص الشعري الفصيح، مما منح النص ثراءً دلالياً وتوسعاً في أفقه الثقافي[47].

(46) البردوني، الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "السفر إلى الأيام الخضر"، من قصيدة "الغزو من الداخل"، المجلد الأول، ص 680.

(47) د. عبد الحميد الحسامي، الحداثة في الشعر اليمني مصدر سابق.

أعندي لعينيكَ يا موطني
سوى الحرفِ أُعطيه سكباً وغرفْ

أتسألني: كيف أُعطيكَ شِعراً
وأنت تؤمَّلُ دُوراً وجُرفْ

أُفصِّلُ للياءِ وجهاً بهيجاً
وللميمِ جِيداً، وللنون ظرفْ

أصوغُ قوامكَ من كلِّ حُسنٍ
وأكسوكَ ضوءاً ولوناً وعَرفْ[48]

أما خالد الرويشان فيعتبر البردّوني، القادم من أرض بلقيس، والمنتمي لها ولتاريخها وفنها وآهاتها وآمالها الكبيرة، شاعر الألف سنة الماضية في اليمن، مضيفاً: "أحسب أن زمناً طويلاً سيمرُّ قبل أن تعرفَ اليمن شاعراً آخر يمكن أن يرتقي هذه الذُّرى التي حلَّقَ البردّوني في أجوائها، وقد كانت ذرىً صعبةً مستحيلةً على المستويين الإبداعي والإنساني"[49].

مِنْ أرضِ بلقيسَ هذا اللحنُ والوترُ
مِنْ جَوِّها هذه الأنسامُ والسَّحَرُ

مِنْ صدرِها هذه الآهاتُ، مِنْ فَمِها
هذي اللّحونُ، ومِنْ تاريخِها الذِّكرُ

مِن "السعيدة" هذي الأغنياتُ، ومِنْ
ظلالِها هذه الأطيافُ والصّورُ

...

يا أمّيَ اليمن الخضرا وفاتنتي
منكِ الفتونُ ومني العشقُ والسَّهرُ

(48) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "ترجمة رملية لأعراس الغبار"، من قصيدة "لعينيك يا موطني"، المجلد الثاني، ص 941.

(49) خالد الرويشان، مصدر سابق.

ها أنتِ في كل ذرّاتي وملء دمي
شِعرٌ تُعَنقده الذكرى وتعتصِرُ[50]

5. وفاته

توقف قلب البردّوني عن الخفقان، وصمتَ صهيلُ قلمه الجامح، في صبيحة يوم الاثنين 30 أغسطس 1999 في صنعاء، تاركاً إرثاً ثقافياً يحاكي الماضي والحاضر، وفلسفة لا تمحوها الأيام. "لا أستطيع أن أتصور اليمن من غير شاعرها الكبير، الكبير بكل المعاني، رغم إيماني المطلق بأن الموت حق، وأنه يتقرر لحظة الميلاد، وأن كل حي لا بد أن يفارق الحياة الدنيا ليبدأ حياته الخالدة في ملكوت الله". هكذا بدت اليمن في صبيحة يوم وفاته، غريبةً في عيون صديقه، شاعر اليمن ومفكرها الكبير، د. عبد العزيز المقالح.

لقد كانت حياة البردّوني رحلةً طويلةً من الاشتعال الإنساني والشعري، ظلَّ خلالها معتزاً بوطنه وهويته، متسامياً فوق آلامه وأحزانه، منتصراً للقضايا التي آمن بها، صامداً وساخراً من الأسى، ومتهكماً على شقاء الواقع وقسوة الدهر؛ فترك لنا شعراً إنسانياً بديعاً متألقاً في صوره ومفرداته وموقفه، وفي حنينه الدائم إلى العدل والمساواة، وفي تحديه لكل محاولات التدجين والاحتواء.

لهذا عاش البردّوني كل حياته بسيطاً زاهداً. وكان عزوفه عن المغريات المادية أو المناصب الرسمية، أو حتى العمل السياسي المباشر، رسالةً ووعياً، وموقفاً ثابتاً لم يتزحزح عنه. وما تزال الأجيال في اليمن تتذكر كيف أنفق قيمة جائزة العويس، التي فاز بها في دورتها الثالثة (1992-1993)، في تمويل طباعة كل مؤلفاته وبيعها للجمهور بأقل من نصف سعر التكلفة. لم يكن الأمر مستغرباً حقاً، فهذا هو "جوَّاب العصور" الذي عرفوه، والذي ما يزال مُلهماً أساسياً للتجربة الشعرية العمودية المعاصرة في اليمن، التي تزخر بأسماء مهمة من الشعراء الشباب المجددين الذين يُعرفون بـ"البردّونيين"، والذين أصبحوا، رغم الظروف القاسية التي تمر بها اليمن اليوم، في الصفوف الأولى للحراك الشعري العربي، في ظاهرة تستحق الوقوف عندها كثيراً.

(50) البردوني: الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "من أرض بلقيس"، من قصيدة "من أرض بلقيس"، المجلد الأول، ص 57.

6. موتٌ أم حياة؟!

وقبل أن أختتم هذه القراءة البانورامية المتواضعة في حياة البردّوني، وفي بعض السمات الأسلوبية في شعره، أجد من الضروري أن أستعير ما قاله د. عبد العزيز المقالح، وهو الذي كتب كثيراً عن البردّوني خلال ما يقارب النصف قرن، من أن الكتابة عن البردّوني هي كأن ترمي حصاةً في نهر كبير... "فهل وصلت الحصاة إلى قاع النهر؟! وهل الدوائر الصغيرة التي تركتها الحصاة على صدر النهر كافية لقراءة ملامحة؟!"[51].

أما ما أود أن أختتم به هذه القراءة فهو أبيات شعرية للبردوني أزعم أنها الأكثر شهرةً وتداولاً بين قرائه ومعجبيه، خاصة في اليمن، على مختلف أعمارهم وذوائقهم الشعرية، وفي هذه الأبيات تتجلى وتتمازج السمات الأسلوبية للقصيدة البردّونية في عدة أوجه، كما تتلخص شخصية شاعرنا الكبير وهو يتطرق فيها إلى الحقيقة الإنسانية المطلقة والمربكة أيضاً للعقل والوجدان على السواء، وأعني بها الموت.

في هذه الأبيات لا يتعاطى البردّوني مع الموت، الذي أخطأه وهو طفل، بشكل نمطي أو متوقع، فهو لا يتحداه، أو يتصالح معه أو يصادقه، ولا هو يرتعد منه خوفاً أو يتحسر أسفاً من قدومه أو يرفضه كنهاية حتمية، بل هو بكل بساطة ينساه! وهو هنا لا ينسى وجوده أو يتغافل عن حضوره الوشيك، بل ينسى أن يقوم به كما لو كان طقساً، أو أحد الواجبات اليومية التي ينبغي على المرء أن يقوم بها في هذه الحياة.

تمتصُّني أمواجُ هذا الليلِ في شَرَهٍ صَموتْ
وتعيدُ ما بدأتْ، وتَنوي أن تفوتَ ولا تفوتْ

فتُثيرُ أوجاعي وتُرْغمني على وجَعِ السُّكوتْ

وتقولُ لي: مُتْ أيها الذَّواي!... فأنسى أن أموتْ[52]

هكذا يلخص البردّوني علاقته بالموت، وهكذا يوضح فهمه الخاص لمعنى الخلود. نعم، ينسى البردّوني أن يموت فيظل حياً خالداً، وكذلك تظل سيرة حياته الفذة، وقصائده الرائعة المشبعة بالخصائص الفنية الفريدة، والسمات العصرية، وبالآلام والشكوى والتحريض والسخرية والتحدي والحكمة والعبقرية الشعرية التي جعلت صاحبها بجدارة واحداً من أشهر الشعراء العرب على مر العصور.

---

(51) د. عبد العزيز المقالح، مقدمة ديوان، مصدر سابق.

(52) البردوني، الأعمال الشعرية، مرجع سابق، ديوان "لعيني أم بلقيس"، من قصيدة "أنسى أن أموت"، المجلد الأول، ص 579.

المراجع:

1. أحلام الفهمي: "جنوبيون في صنعاء شماليون في عدن"، صحيفة "الجزيرة"، 4/4/ 2015، https://goo.gl/3gWJ3m.
2. خالد الرويشان: "بين يدي البردّوني"، مقدمة "ديوان عبدالله البردّوني، الأعمال الشعرية"، المجلد الأول، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2002.
3. د. رحمن غركان: "البنيات الأسلوبية في تحولات أعشاب الرماد لعبدالله البردّوني"، موقع "أثير"، 2017/3/5. https://goo.gl/xBTmF1.
4. د. رشيد الخيون. "فصول من مسيرة البردّوني الحياتية والشعرية"، صحيفة "الشرق الأوسط"، منقول من موقع المجلس اليمني https://goo.gl/ysKAMj.
5. عبد الباري طاهر: "البردّوني المبدع والرائي الذي رأى ما لا يُرى"، ملحق صحيفة "الثورة"، 2010/8/29.
6. د. عبد الحميد الحسامي: "الحداثة في الشعر اليمني المعاصر"، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004.
7. د. عبد الحميد الحسامي: "تقنية السرد في الشعر اليمني المعاصر"، مجلة "أدب ونقد"، العدد 329، يونيو 2013.
8. د. عبد العزيز المقالح: مقدمة "ديوان عبدالله البردّوني، الأعمال الشعرية"، المجلد الأول، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2002.
9. د. عبد العزيز المقالح: "ملامح حداثية في شعر البردّوني"، https://goo.gl/XPtAhS.
10. د. عبد العزيز المقالح: "من أغوار الخفاء إلى مشارف التجلي"، دراسات ومتابعات نقدية، صنعاء، دار الكلمة، 1990.
11. عبد الله البردّوني: مقدمة "ديوان عبدالله البردّوني، الأعمال الشعرية"، المجلد الأول، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، 2002.
12. محمد الزينو السلوم: "شعراء تحت الضوء"، دار الثريا، 2000.
13. محمد صالح المحفلي: "توظيف السرد في شعر البردّوني"، رسالة ماجستير، جامعة حضرموت، اليمن، 2009.
14. محمود صلاح سلام: "إعادة اكتشاف البردّوني"، مقال منشور في "مصر برس"، 2011/10/18، https://goo.gl/w4RtMy.
15. مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني: "السخرية في شعر عبدالله البردّوني"، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة أم القرى، 2010.

16. د. نبيلة إبراهيم: "المفارقة"، مجلة "فصول"، القاهرة، سبتمبر 1987، ص134.

17. وليد مشوّح: "الصورة الشعرية عند البردّوني"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1996.